القول الحق
في حكمة الخلق

القول الحق في حكمة الخلق

للقاضي العلامة
صلاح بن أحمد فليته

مكتبة التراث الإسلامي
صعدة

لكافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الاولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

مكتبة التراث الاسلامي
الجمهورية اليمنية - صعده - مفرق الطلح
تلفون: ٥١٢٩٠٧ - ٥١٣٨٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على محمد وآله وسلم

الحمد لله القائل: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**[1].

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة وهدى للعالمين، وعلى آله الهداة الميامين وبعد:

فإنه وصل إلينا سؤالات من أخ كريم يقول فيها:

السؤال الأول: كيف خالق لا يتصور وليس في مكان ولا زمان يلزم أن ليس لنا عقول؟

الثاني: كيف يعذبنا بما عملنا وهو عالم بما سنفعل من المعاصي وهو العليم الحكيم؟

الثالث: أين الرحمة من عذاب النار الأبدي وهو

---

(١) آل عمران/ ١٩٠.

المخبر لنا أنه أرحم الراحمين؟

الرابع: أين الحكمة في الخلق مع التعذيب وهو أحكم الحاكمين؟

فأفضلوا بالجواب بالأدلة العقلية فالمسألة حادثة ولا يكون الجواب من السنة والقرآن، وقد حصل من هذه المسائل بعض التشكيك، ونخاف من الفتنة على بعض من الناس، وهذه المسائل أوردها بعض العلماء من أهل مصر، أفضلوا بالجواب والسلام.

هذا وقد تصديت للجواب وإن لم أكن أهلا ولكن للزوم الحجة و ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[1] ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾[2] فأقول مستعينا بالله ولا قوة إلا بالله:

الجواب وبالله التوفيق أما قوله: «كيف خالق لا نتصوره»... إلخ فهذه كلمة غير لازمة، فالتلازم غير موجود فلا دليل على التلازم لا سمعا ولا عقلا أما السمع

---

(١) البقرة/ ٨٦.

(٢) الطلاق/ ٧.

فهو يمنع من تصور الله تعالى وهو دليل على عدم التلازم.

وأما العقل فكذلك لا يقضي بتصور الخالق بل يقضي بأنه لا يتصور إلا المحدث من جسم أو عرض، ومع أن العقل يؤمن بالمغيبات، ومنها ما يتصور ومنها ما لا يتصور، فما كان له صفة يعرفها العقل تصور ذلك، وما لم يكن له صورة معروفة فلا يتصورها كالجنة والنار وغير ذلك، وكالملائكة، وإن تصور شيئا من ذلك فذلك على صورة التهجم، والتبخيت على أنه خلاف ما نتصوره، فالملائكة والجن لها صور لا نعرفها وقد يتصور الإنسان شيئا على ما ينقل إليه من صفة الغائب الذي لا يعرفه وهذا شيء مفهوم ومن أجل ذلك وقع النهي عن تصور ذات الله، وإن وصف بالقدرة والعلم والحياة والوجود وغيرها لما يأتي، ولأنه على خلاف ما يتصوره المتصورون؛ لأن كنه ذاته لا يبلغ معرفتها عقل ولا غيره لأنه جل وعلا لم يخلق لنا إلا عقولا قاصرة قد عجزت عن تصور بعض المحدثات فضلا عن القديم الواجب الوجود جل وعلا، فالله فوق ما يتصوره المتصورون، فلا

مجال للعقول أن تتصوره لأنه فوق ذلك وأبعد من ذلك، والعقول في حد ذاتها قاصرة جعلها الله لنا لأن نعرف بها ما يصلح ديننا ودنيانا فقط، وهي محصورة محدودة عجزت عن معرفة الروح، وهو كذلك غير معروف للإنسان فقد عجز الإنسان عن معرفة الروح وعن معرفة بعض ما اشتمل عليه، والله أمرنا أن نؤمن بالغيب ونصدق به، ومدح الذين يؤمنون بالغيب كما قال تعالى: ﴿**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ ونهانا جل وعلا عن التفكر في الله قال صلى الله عليه وآله وسلم: (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره). الحديث. وهذا يفيدنا أنا لا نقدر على ذلك وليس لنا احتمال ولا قدرة توصلنا إلى أن نقدر الله حق قدره ونعرف كنه ذاته.

وروي هذا الحديث بلفظ آخر (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق) أخرجه الإمام القاسم بن محمد

---

(١) البقرة/ ٣ ـ ٥.

والدارمي وأخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول له: من خلقك؟ فيقول: الله فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله فإنه يذهب عنه ذلك).

وروي بلفظ آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله فمن خلق الله؟ فمن وجد شيئاً من ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله). أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «من تفكر في الله ألحد ومن تفكر في خلق الله وحد» وروي بلفظ «من تفكر في المصنوع وحد ومن تفكر في الصانع ألحد».

وأخرج الدارمي في مسنده عنه صلى الله عليه وآله وسلم (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (إتقوا إن تمثلوا الرب بشيء إنه لا مثل له، أو تشبهوه بشيء من خلقه فإن

لمن فعل ذلك ناراً لا تطفأ أبدا).

هذا واعلم أن أعظم دليل يدلنا على الله هو حدوث هذا الكون الذي يدلنا على أن له محدثا، وكلما تقدم العلم أكثر أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعاً إذ وضوح الدلالة وتعاضدها لا تبقي مجالاً للشك والأوهام، وأن العقل الذكي والفكر الصافي الصحيح المبرأ عن الغرض السقيم يوصل حتماً إلى الله تعالى، ويوقفه خاشعاً أمام الشعور الغامر بعظمة الله وجلاله، ومعرفة الله تعالى مركوزة في كل طبع، واسمه الكريم معروف في كل لغة على اختلاف الأجناس والألسنة، لم يصرف الأفئدة والأفكار صارف عن هذه الحقيقة الواحدة.

إن المعرفة المتصلة لم تأخذ إمتدادها الكامل ولم تبرأ من الأوهام وتبعد عن الأهواء إلا عندما يتلقاها الإنسان مصفاة من ينابيع الوحي، وحين يسمع الآيات تتلى عليه وقد أوضح القرآن الكريم بالقدر الضروي الذي يسد حاجتنا في هذا المقام فوصف الإله ذاتاً متصفة بالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وغير ذلك من صفات

الكمال التي تليق برب العالمين.

«الله» اسم لذات جامعة لصفات الكمال وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، قال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: (إنه لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، لا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تمجيداً، ولا بذي كبر امتدت به النهايات فكرته تجسيما).

وقال أيضاً: (العقل آلة أعطيناها لإقامة العبودية لا لإدراك حقيقة الربوبية، فمن استعملها لإدراك الربوبية فاتته العبودية ولم ينل الربوبية) ويلزم من مفهومه ومن استعملها لإدراك العبودية أدرك معرفة الربوبية.

وقال ابن أبي الحديد:

والله لا موسى ولا ... عيسى المسيح ولا محمد
علموا ولا جبريل وهو ... إلى محل القدس يصعد
كلا ولا النفس البسيطة ... بل ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير ... أنك أوحدي الذات سرمد
فلتخسأ الحكماء عن جرم ... له الأملاك سجد
من أنت يا رسطو ومن ... أفلاطون قبلك يا مبلد

ومن ابن سينا حين مرد ... ما بنيت له وشيد
هل أنتم إلا الفراش ... رأى الشهاب وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشدا لأبعد

وقال أيضاً:

فيك يا أعجوبة الذا ... ت غدا الفكر كليلا
أنت حيرت ذوي الأ ... لباب وبلبلت العقولا
كلما أقدم فكري فيك ... شبرا فر ميلا
ناكصا يخبط عميا ... لا يهدي السبيلا

* * *

وقال أمير المؤمنين عليلم: (الحمد لله الذي بطن ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير فلا عينَ من لم يره تنكره ولا قلب من اثبته تبصره، سبق العلو فلا شيء أعلا منه، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه بَعَّدَه عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان، لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذي شهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى عما يقول المشبهون به والجاحدون له علوا كبيراً).

وقال أمير المؤمنين (ع) وكرم الله وجهه: (فانظر أيها السائل فما دلك القرآن عليه من صفته فأتَمَّ به واستضيء بنور هدايته، وما كلفك الشيطان عمله مما ليس عليك في القرآن فرضه ولا في سنة النبي (ص) وأئمة الهدى أَثَرُهُ فَكِل أمره إلى الله فإن ذلك منتهى حق الله عليك، واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جعلوا تفسيره من علم الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصروا على ذلك، ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين).

النهي عن التفكر في ذات الله

والتفكر في ذات الله من أعظم المهالك وأخطر المسالك فيجب التوقف على ما أوجب الله عليك ولا تتقحم سدداً مضروبة فإن ذلك فوق نطاق العقل فالعقل

قاصر عما هنالك فلا تحمله ما لا يطيق وقال عليه السلام:

كيفيـــة النفـــس ليـــس المـــرء يـــدركهـــا
فكيـــف كيفيـــة الجبـــار فـــي القـــدم
هـــو الـــذي أنشـــأ الأشيـــاء مبتـــدعـــا
فكيـــف يـــدركـــه مستحـــدث النعـــم

وقال ابن عباس رضي الله عنهما حين سئل كيف عرفت ربك؟ فقال: (عرفته بما عرف به نفسه من غير رؤية وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة، لا يعرف بالحواس ولا يقاس بالناس معروف بغير شبيه)... إلخ كلامه.

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: (الذي ابتدع الخلق على غير مثال) إلى قوله: (فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه، وإن كان خلقا صامتا فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة).

التفكر في المخلوقات هو الدليل للمعرفة

واعلم أنه لا طريق للعقول إلى معرفة كنه ذات الله

تعالى لا ظناً ولا جزماً، وإنما الطريق إلى العلم به تعالى والإيمان به والإقرار بربوبيته هو التفكر في صنع الله تعالى ومخلوقاته، والتدبر لما اشتملت عليه من بديع حكمته، وبذلك يعرف الله حق معرفته وقد أوسع الله في القرآن من الآيات التي تدل وتثير العقول وتنبه الغافل إلى التفكر والتدبر، قال تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾[1] ﴿**إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون**﴾[2] وفي القرآن من هذا كثير.

وأن غاية التفكر وثمرته لمن أجل الغايات التي يريدها الإسلام من إيقاض العقل للتأمل والنظر والتفكر

---

(١) البقرة/ ١٦٤.

(٢) الجاثية/ ٣ ـ ٥.

لهداية الإنسان لقوانين الحياة، وعلل الوجود، وسنن الكون، وحقائق الأشياء، لتكون هذه هي المنارات التي تكشف له عن مبدع الكون وخالقه، وأن معرفة الله إنما هي نتيجة تفكير عقل ذكي ملهم، وثمرة تدبر عميق مشرق قد استنار بنور الهداية واستضاء بمصباح الهدي النبوي وتأمَّلَ لمعاني صرائح القرآن الإلهي وتأمَّلَ بوعي كلام الله وتَدَبَّر كلام الله في قوله تعالى: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يُشركون أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها اءله مع الله بل هم قوم يعدلون**﴾[1].

إذا نظر العاقل وتدبر هذه الآيات العظيمة بتأمل وتفكر فإنها تفتح له أبواباً واسعة من الإيمان بالله والإقرار به والتصديق الذي لا يخالطه ريب، إنها تنفعل لها النفوس وتخر مذعنة أمام هذه الألفاظ، إنها تكشف له عن أكبر حقيقة من حقائق هذا الوجود وتبرهن عن ذات

---

(١) النمل/ ٥٩ ـ ٦٠.

في أبلغ كمال وأكمل جلال لا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم.

فإذا عرفت هذا فقول السائل: كيف خالق لا نتصوره؟ كلمة ليس لها أي قبول عند كل عاقل ولا مساغ ولا مدخل لها ولا قبول، لأنها لم تكن تدل على إشكال؛ لأنه ليس كل موجود يجب أن يتصور وإلا فهو غير موجود ولا يعقل ولا يعرف، فيلزم ان يكون غير موجود، كان الله ولا شيء معه، وإذا لم يتصوره المربوبون فليس بخالق لهم هذا خلف من القول ويدفعه العقل حيث أنه قد وجد في المحدثات ما لا يتصور ولا يعرفه العقل ولا يفهمه كالروح والعقل فكيف بواجب الوجود.

فإن أراد السائل أن من حق الخالق أن يتصور لأنه رب عظيم فلا يجهل عن التصور قلنا: إن التصور في حق الله نقص لأن العقل يقضي بأنه لا يتصور إلا ما كان له جهة وحَدٌّ الا أن يكون جسماً أو عرضاً لا غير والله ليس بجسم ولا عرض ولا مما يتصور فليفهم المطلع فهذا أمر خطير وذنب عظيم كبير.

وأما قوله في هذا السؤال وليس في مكان ولا زمان يلزم أن ليس لنا عقول ا هـ.

فنقول: الكلام فيه ركة وضعف تعبير ومقصوده والله أعلم: فإذا كان لا في مكان ولا زمان فهو معدوم لأنا لا نفهم إلا ما كان يحويه الزمان والمكان، فنقول: هذا في الشاهد فلا يمكن شيء إلا ويحويه الزمان والمكان وإلا فليس بشيء والله جل وعلا ليس كذلك لأنه ليس بجسم فيحتاج إلى مكان، ولا بعرض فيحتاج إلى محل وشبح، إن الله جل وعلا على صفة لا تحتاج إلى زمان ولا مكان وهو خالق الزمان والمكان وكان قبل خلق الزمان والمكان ولهذا قال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: (لا يقال في الله أين؟ لأنه خالق المكان ولا متى؟ لأنه خالق الزمان) فأين كان قبل خلق الزمان والمكان؟ فالله لا تحويه الأمكنه ولا تجري عليه الأزمنة وهو الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

نعم لقد قامت الأدلة الواضحة الصريحة العقلية على أن ما في الكون من آيات تنطق بأن لها صانعاً حكيماً وهو

قانون بدائي عند الذي يؤمن بمبدأ السببية إيماناً عقلياً لا يحتاج إلى إكتساب دليل، لأن الفطرة الإنسانية السليمة لتدرك إدراكاً مباشراً أن لها رباً عظيماً صانعاً حكيماً موجوداً قادراً. **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فِطْرَتَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[1].

وإن من أهم وسائل المعرفة وعليها مدارها هو التفكر العقلي والتدبر في الكون وما اشتمل عليه من بدائع الحكمة، لقد أعطى العاقل آلة هي أفضل شيء في الإنسان وهي العقل فإذا لم يستعملها فيما خلقت لأجله فهو أبعد شيء في المخلوقات وأقل قيمة من جميع الحيوانات؛ لأن الإسلام يطلب من العقل أن ينهض من رقاده ويفيق من سباته فهو يدعوه إلى التفكير والتدبير في المخلوقات، وبذلك يصل إلى معرفة الله التي هي أجل المعارف وأفضلها، ولذلك ورد (أن التفكر جوهر العبادة) (والتفكر ساعة أفضل من عبادة ستين سنة) ولأنه

---

(١) الروم/ ٣٠.

ينمو بالعبادة ويزكيها.

وحقيقة التفكر هو: إجالة الفكر في المخلوقات مع التدبر في ماهية المصنوعات، وما فيها من التركيب المحكم، وما اشتملت عليه من أصناف المحدثات.

والقرآن يوجب على العباد التفكر إيجاباً محتماً لازماً، لأنه لا يبلغ إنساناً مؤمناً عاقلاً إلا به، وإذا لم يتفكر ويتدبر أصبح من أجناس البهائم بل أبعد لا يفرق بين حسن وقبيح فتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان في مستوى دنيء أرذل من مستوى الحيوانات حتى يحول بينه وبين النفوذ إلى الحقائق في الأنفس وفي الآفاق قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[1] للتباعد عن هذا المستوى يقول الله جل وعلا: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات

---

(١) الأعراس/ ١٧٩.

والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾[1]، ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[2]، ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[3]، ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[4] وغير ذلك مما يطول به البحث من الآيات المثيرة لدفائن العقول والكاشفة للحجب التي طال ما خيمت تحتها العقول التي أصبح أهلها بين جهل وضلال، فمنهم الذين يجحدون نعمة العقل، ومنهم من أشرك بالله غيره، ومنهم الجاحدون الذين يتخبطون في ظلمات الغي والضلال، فمنهم من ينسب ذلك إلى الهيولا وأصول الأشياء إلى غير ذلك من الخرافات والأقوال التي ما أنزل الله بها من سلطان بل هي كفر وضلال.

العقل هو النعمة الكبرى

وإن الإنسان ليمتاز بالعقل إن استعمله ويستثمر به من

---

(١) الروم/ ٨.
(٢) يونس/ ١٠١.
(٣) الذاريات/ ٢١.
(٤) الغاشية/ ١٧.

خيرات الأرض، ويطير به في الفضاء، ويغوص به في أعماق الماء ويعلم به الكثير من العلوم والمعارف عن طريق ما يأتيه من الحواس والمشاعر، وما يكتسبه من علامات ومشاهدات ومسموعات؛ لأن الله جعل هذه المشاعر آلة يستعملها في منافعه العاجلة والآجلة، وبذلك حسن من الله أن يكلف عباده بأنواع من التكليفات ليتوصل المكلف بذلك إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة ﴿ليجزي الذين أسئوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[1] وقال تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[2] وقد طلب منا بعد ذلك نتائجه اللازمة فقال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[3].

وسائل الايمان والمعرفة

قال بعضهم: «إن وسائل الإيمان معدة لكل طالب

---

(١) النجم/ ٣١.
(٢) النحل/ ٧٨.
(٣) الحج/ ٤٦.

وراغب، إن الله سبحانه إذا أرسل إلى عباده رسولاً وأمرهم بطاعته واتباعه وجب أن يعززه ويؤيده بالأدلة القاطعة على نبوته، فبالأحرى إذا دعاهم إلى الإعتراف بربوبيته أن يفتح لهم أبواب العلم بها ويمهد السبل إلى معرفتها، وقد يسر الله سبل الإيمان به حتى كادت تلحق بالبديهيات للذين لم ينحرفوا عن جادة العقل السليم والفطرة الصافية، ولا تنحصر هذه السبل بأدلة المتكلمين والفلاسفة بل يجدها الناظر في العالم بجملته، وفي نفسه، وفي الجماد والنبات والحيوان، وفي كل ذرة في الأرض والسماء، وفي كل خلية وجزء من جسم الحيوان، وفي كل حي يجد هذه الأدلة كل إنسان سواء كان عالماً أم جاهلاً، صالحاً أم غير صالح على شريطة أن يكون من طلاب الحقيقة لا من مدعيها جهلاً وغروراً، ومن هنا ولأجل توافر الأدلة والبراهين على وجود الخالق لا عذر عند الله عز وجل لمن يجحده وينكره كائناً من كان لأنه الذي قصر عن النظر؛ لأنه إما أهمل النظر أو نظر نظرة غير كاملة فهو غير معذور لوضوح الحجة وبيان أنوار

المحجة فلا يضل فيها ذو عقل إلا بسبب التقصير في النظر. ولله القائل:

تحيـــرت الألبـــاب والفكـــر والبصـــر
وبـــان طـــريـــق الغـــي فـــي واضـــح الفكـــر
وقـــد أوضـــح الله المحجـــة والهـــدى
سمـــاء وأبـــراج كـــذا الشمـــس والقمـــر
نجـــوم وآيـــات ونـــور وظلمـــة
وفـــي النفـــس آيـــات مـــن السمـــع والبصـــر
وكـــم آيـــة فـــي عـــالـــم الأرض لـــو نظـــر
فـــلا عـــذر مقبـــول إذا جـــاء واعتـــذر
فمـــا عـــذر مـــن أغضـــى ومـــال عـــن الهـــدى
إذا مـــا رأيـــت الغـــافليـــن عـــن النظـــر

قال تعالى: **﴿فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾**[1] وانظر ما قال الله تعالى في عُبَّاد الأوثان **﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض**

---

(١) فصلت/ ١٧.

ام لهم شرك في السموات أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾[1] ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[2].

صفات الله تعالى

إذا عرفت ما ذكرنا علمت أن الله سبحانه وتعالى اختص بصفة مباينة المحدثات، وأنه على صفة لا ينبغي أن يشاركه فيها أحد من خلقه، وأنه قد بائن المحدثات في كل صفاتها فالتصور من صفات المحدثات، فلو جاز أن يتصور لشارك المحدثات في هذه الصفة كما يقال في الرؤية: لو جاز أن يرى في الدنيا أو في الآخرة ـ كما يقوله المشبهون له ـ لشارك المحدثات في وقوع الشعاع البصري عليه جل وعلا والله يقول: ﴿ليس كمثله شيء

(١) الاحقاف / ٤ ـ ٥.
(٢) محمد/ ٢٤.

وهو السميع البصير﴾[1] فهذا دليل عقلي كما طلب السائل.

فامتناع تصوره عقلي، ولا يجوز عليه التصور قطعاً لأنه لو جاز ذلك لشارك المحدثات ولزم أن يكون محدثاً تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

وكذا نقول: إنه لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان لهذه العلة لأنه يلزم أن يشارك المحدثات في الإحتياج إلى الجهة والمكان ومرور الزمان، ولا يلزم من هذا محال لأنه قد تحقق أنه كان قبل خلق الزمان والمكان، وإذا لم نعرف كنه ذاته وجهلناها فلا يلزم أنا قد جهلناه؛ لأنا قد عرفناه بما وصف به نفسه في القرآن ويجب أن نقطع بهذه الصفات ولو لم نعرف كنه تحقيقها لأن جهل بعض ما تترتب عليه الذات مع الجهل بكنه الذات لا يضر، بل الواجب الإيمان بذلك والوقوف حيث أوقفه الله كما قال بعضهم: «العجز عن دراك الإدراك إدراك»، وهذا هو الواجب، وما الجنس البشري عند

---

(١) الشورى/ ١١.

الملائكة المقربين؟ الخلائق كلهم عند الله في غاية الضعف والعجز وما جعل الله لهم من القدرة والإدراك والمعرفة إلا شيئاً قليلاً لا يصلون به إلا إلى جزئيات من المعلومات، فسبحان من تفرد بالبقاء والدوام والملك والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال.

ويحسن أن نذكر قصة بعض الأساتذة الملحدين مع طلبته المفكرين وقد شرح ذلك سعيد حوى في كتابه: الله، والرسول، والإسلام، بما حاصله يقول الأستاذ لتلاميذه: أتنظرون إلى السبورة؟ قالوا: نعم قال: هي موجودة؟ قالوا نعم. قال: أتنظرون إلى هذا القلم؟ قالوا: نعم قال: هو موجود؟ قالوا نعم. قال اتنظرون إلى الله المدعى أنه الخالق؟ قالوا: لا قال: فالله غير موجود فقام أحد التلاميذ الأذكياء فقال: أتنظرون إلى عقله؟ قالوا لا قال: فعقل الأستاذ غير موجود فصفقوا له وحكموا على الأستاذ بأنه غير عاقل بل كافر.

فانظر إلى هذه القصة فيجاب على الأستاذ المقدم للسؤالات بهذه القصة فيلزم على قود قوله أن عقله غير

موجود لأنه لا يقدر أن يتصوره مع انه موجود في جسمه فتأمل. والله الموفق.

وأما السؤال الثاني وهو قوله: كيف يعذبنا بما عملنا وهو عالم بما سنفعله من المعاصي وهو العلي الحكيم وقد خلقنا وهو عالم بما نفعله لتقدم علمه؟

فالجواب أنا نقول: نعم إنه لا يعذب إلا من علم أنه قد عصاه وليس هنا إشكال ولعل السائل أراد كيف يعذبنا على المعاصي وقد سبق في علمه أنا سنعصي ومكننا من ذلك؟ ليتجه الإشكال، وحاصل الإشكال أن الله سبحانه قد علم بالعاصي قبل أن يعصي فكيف يعذبه وهو الذي خلقه ومكنه.

فنقول: إن الله خلق الخلق بما قضت حكمته لعباده كما قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾**[1] وذلك منه تعريض على الخير وعلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فالباعث على الخلق وسببه هو ما ذكرنا، وأما الغاية فليست تعود على السبب

---

(١) الذاريات/ ٥٦.

الإبتدائي وعلمه غير مؤثر في سبب ولا إيجاب لأن العلم كشف أنه لا تأثير له وقد قالت المجبرة نحو هذا قالت: إن تكليف من يعلم أنه لا يقبل قبيح مستدلين بذلك أن الله يفعل القبيح ولا يقبح منه جل وعلا، والجواب عليهم كما أجاب أصحابنا من وجهين إجمالي وتفصيلي.

أما الإجمالي: فإنه قد ثبت بالعقل والنقل أن الله عدل حكيم غني عليم وأفعاله كلها حسنة لأن العدل الحكيم لا يفعل القبيح لقبحه ولعلمه بقبحه، ولإستغنائه عنه فيجب أن نؤمن بأن أفعاله حسنة ولو جهلنا وجه حسنه لهذه القاعدة الحقيقية المقطوع بها عقلاً ونقلاً.

وأما الجواب التفصيلي: فإن التكليف من الله جل وعلا تعريض للثواب الذي يحسن الإبتداء به لما فيه من الإجلال والإكرام والتعظيم وفعل ذلك لمن لا يستحق قبيح، والثواب لا يستحق إلا بالتكليف فالتكليف حسن لما فيه من التعريض على خير الدنيا والسعادة الأبدية، فالتعريض حسن للعلة الإبتدائية والغائية في حق المؤمن وهو من يقبل، أما الذي لا يقبل فقد حصلت العلة

الإبتدائية وهو وجه حسن عقلاً.

ومثال ذلك: كما يحسن تقديم الطعام للجائعين سواء قبل كلهم أم لا؛ لأن عرض الطعام عليهم مع حاجتهم إليه نعمة وفعل حسن يعرف ذلك كل عاقل ولو علم المحسن أنهم لا يقبلون إحسانه فالتعريض حسن حيث كان الباعث للمحسن هو الإحسان فعدم قبول من رد لا يغير وجه الحسن وذلك معروف عقلاً.

ودليل آخر: لو قبح تكليف الكافر لأجل رده لحسن تكليف المؤمن لأجل قبوله فيتوقف أحدهما على الآخر فلا يتم إحسان الله ونعمته ألا بفعل أحدنا وهو القبول، وهذا مع كونه محالاً في الشاهد، وكونه يقتضي ألا تستقل نعمة الله بالتكليف فإنه يقتضي وقوف كل واحد من الأمرين على الآخر.

وأيضاً يقال: لا يخلو قبح هذا التكليف إما أن يرجع إلى المكلِّف وهو علمه بأن المكلَّف، لا يقبل فالعلم ليس له تأثير بعد التمكين من النفع، وإما أن يرجع إلى المكلَّف وليس إلا كونه لا يقبل وهذا متأخر عن التكليف

فلا يصح أن يكون علمه الموجب لقبحه لأن وجه الحسن يجب أن يقارن والقبح يجب أن يقارن لأن المؤثرَ لا يتأخر عن الأثر.

ووجه آخر لو قبح تكليف الكافر لقبح ما لولاه لما توجه التكليف عليه كالقدرة والآلة ونحو ذلك ولوجب فيمن كلف أن يقطع بكونه من أهل الجنة، وفي العلم بذلك مفسدة ظاهرة وذلك للبناء على قبح تكليف من المعلوم حاله أنه يكفر مع القطع بأنه من أهل النار ومعلوم أن الله لا يفعل القبيح.

وأيضاً لأنه تناقض مع التكليف ولا يمكن تكليف البعض، وإذا كان من لم يقبل غير مكلف فما يكون حاله هل يقطع ويحكم له بالجنة وذلك غير عدل، أو بالنار وذلك ظلم لأن المعصية لا تكون معصية إلا مع التكليف، والحاصل أن تكليف بعض العقلاء وترك بعضهم غير عدل ولا يصدر من الحكيم العادل جل وعلا، كذا أفاد بعضهم. بمعنى هذا وهو حسن جدا.

التكليف وحسنه

إذا عرفت ذلك علمت أن التكليف للعباد حسن قطعاً مؤمنهم وكافرهم، ومن سبق في علم الله أنه يقبل، ومن سبق في علم الله أنه لا يقبل، لأن ذلك تعرض للسعادة الأبدية وذلك حسن قطعاً.

وقد استدل بعضهم على حسن التكليف مطلقاً بقوله: لأن قبح التكليف لا يخلو وجه قبحه من أنه إما ظلم أو عبث إذ لا وجه يقتضي قبحه إلا ذلك، لا يصح لكونه ظلماً لأنه إن جعل ظلماً فليس إلا لما يتبعه من العقوبة مع عدم القبول فالعقوبة ليست على نفس التكليف، وإنما العقوبة على فعل القبيح أو ترك الواجب، وهما جهتان لحسن العقاب، فليس العقاب ظلماً وإن جعل التكليف ظلماً لما يلحق من المشقة فالكافر لم يفعل واجباً ولم يترك محرماً حيث لم يلتزم بالتكليف فلا مشقة، ولأنه يلزم في المؤمن وهو الذي تلحقه المشقة إن جعل ظلما؛ لأن التكليف ضرر في نفسه فهذا الوجه ثابت في المؤمن فيكون بتكليفه ظلماً ولا قائل به فبطل كون التكليف ظلماً

إذ لا يتعقل كونه ظلماً إلا من الأوجه المذكورة.

وأما العبث فلا يصح لأن العبث هو الذي لا يكون له غرض أصلاً، أو ما عري عن غرض، لا يجوز أن يكون لا لغرض لأن الغرض فيه حاصل وهو ما ذكرنا من التعريض ولا من الذي عري عن غرض مثله لأن التعريض لغرض مثله وهي تلك المنافع العظيمة الدائمة؛ إذ مشاق التكليف حسن لعدم ما يتوجه في جعله قبيحاً وقد تحقق حسنه لما بيناه والله الموفق.

وقد يرد هنا سؤال وهو عن وجه حسن التكليف لمن لا يقبل فيقال ما وجه حسن ذلك؟

فالجواب نقول: وجه حسنه أنه يمدح فاعله ويذم تاركه عقلاً ألا ترى أن الجائع إذا قدم له المحسن طعاماً فلم يقبل أن المحسن يمدح والذي لم يقبل هذا الإحسان يذم لأن الجائع محتاج إلى الطعام، وقد يؤدي تركه إلى الضرر أو الهلاك ولا يضر العلم بأنه لا يقبل، ولا يؤثر في ذلك بأن يدفع حسنه كما قدمنا أن العبرة بقصد الفاعل فلا تغيره العلة الغائبة، ولا تخرجه عن كونه حسناً قطعاً.

على أن حكمة الله قد قضت أنه لا نجاة للمكلف إلا بالتكليف وقبول التكليف، وإذا كان لا نجاة له إلا بالتكليف حسن التكليف قطعاً كالغريق في الماء إذا كان لا يمكنه التخلص إلا بإدلاء الحبل له لينقذ نفسه ليستمسك بالحبل فإذا فعله له إنسان وأدلى إليه الحبل ولم يقبله فإن إدلاء الحبل حسن قطعاً، وترك الغريق الإستمساك مذموم قطعاً وفاعل ذلك محسن قطعاً ولو علم أنه لا يقبل فتأمل ذلك والله الموفق.

العقل ودوره في علم اصول الدين

واعلم أن أصول الدين هو علم فيما يتعلق بمعرفة الله وتوابعها، وأكثر أدلة هذا العلم عقلية وإنما السمع مؤكد أو مثير لدفائن العقول ودلالة العقل هي أقوى الأدلة، وطرقه التجارب والتمثيل والمقايسات ولذا كانت أدلة أهل المنطق من طريق العقل بهذه الوسائل، وجعلوا منها ما يفيد اليقين وما يفيد الظن وإلى آخره، ففي أصول الدين كان للعقل مدخل لأنا نعلم به مفردات جزئية بطريق

المشاهدات أو بأحد الحواس بثبوت أو نفي أو حسن أو قبح أو وجوب فتصير هذه النسب المعلومة مقدمات يتوصل بها إلى ثبوت نسب أخرى مجهولة، ومع ذلك فلا يثبت العقل نسبة في ذات لأجل ثبوتها في ذات أخرى إلا بجامع هو الذي أثبت النسبة في الأصل، وهذا الذي يقال له: الجامع بين المشاهد وغيره ويقال له: الرابطة لأنه يربط بين الشيئين مثلاً حيث رأينا أفعالاً محتاجة إلينا كالبناء مثلاً لا يحدث نفسه لا بد فيه من بانٍ علمنا أن للعالم صانعاً، ولما رأينا أن الفعل لا يصلح إلا من قادر، علمنا أن صانع العالم قادر ولما علمنا أن الصنع المحكم لا يفعله إلا محكِم علمنا أن صانع العالم حكيم قادر لما اشتمل عليه من بديع الصنعة إلى آخره، وهذه أدلة عقلية توصل إلى العلم اليقيني وقد قالت المجبرة وبعض المخالفين بل ظنية وذلك غلط وإنما هو بناء على قواعدهم المنهارة والله الموفق.

السؤال الثالث أين الرحمة من عذاب النار الأبدي وهو المخبر لنا أنه أرحم الراحمين؟.

الجواب وبالله التوفيق: قوله (أين الرحمة) فقد أخبرنا الله بموضعها فقال ﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾[1] والله سبحانه وتعالى بحكمته وعظيم فضله وقدرته جعل الثواب لمن أطاعه والنار لمن عصاه.

وحقيقة الثواب: هي المنافع المستحقة على جهة التعظيم.

والعقاب: هو ابطال العذاب المستحق على جهة الإهانة.

فيجب على المكلف اعتقاد ذلك والإيمان به، وهما معلومان من ضرورة الدين.

ويدل على ذلك العقل والنقل أما العقل: فإن الإنسان العالم والجاهل له شعور خفي يشبه الإلهام بأن وراء هذه الدنيا حياة أخرى تتحقق فيها العدالة بين المخلوقين التي فقدت في الدنيا فينال كُلٌّ جزاء عمله حتى أن الله لو

---

(١) الأعراف/ ٥٦.

أسدى إلى الإنسان في الدنيا ما أسدى من المواهب العظيمة وأحسن إليه بكل إحسان ثم تركه بعد ذلك سدى لكان من العمل الخالي عن الحكمة البعيد عن العدل، إذ هو معرض في هذه الحياة لكل مصيبة ومحنة.

ومع أن الله خلق الإنسان بحكمته ومكنهم وخَلَّى بينهم ورفع الموانع حتى يتمكن الإنسان من ظلم أخيه، وقد نهاهم عن التظالم في الأنفس والأموال والأعراض وفرض المجازاة، وأباح لنا الإنتفاع بكثير من المنافع من ذلك الحيوانات منها ما يذبح ومنها ما يحمل، ومنها ما يعمل إلى غير ذلك من المنافع العظيمة الكثيرة، ولم يكن لها أي عوض في الدنيا وفرق بين المخلوقين فرقاً شتى متفاوتة في أكثر الأشياء فمنهم الفقير والغني، والصحيح والسقيم والمعافى والعليل، وناقص الخلقة وكاملها، والمسخر والمسخر له، وقد أشار إلى الحكمة في بعض ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما**

يجمعون﴾[1] وقد شاهدنا الكثير من المظلومين يموتون أو يقتلون ولم يكن لهم أي جزاء ولا مناصفة، وقد تحقق عدل الله في خلقه فمن هنا ولأجل ذلك يقطع العقل بأنه لا بد من دار غير هذه يتحقق عدل الله فيها بين المخلوقين.

وقصة قس بن ساعدة مشهورة حيث قطع بحدسه وفطرة عقله أنه لا بد من دار غير هذه يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته وينتصف فيها المظلوم من ظالمه فهذه طريقة عقلية.

وأما النقل فالقرآن مملوء من الأدلة قد كشف فيه حال الآخرة وما يكون فيها.

على أن العقل قد حكم بوجوب المجازاة واستحقاق الثواب والعقاب.

أما الثواب فذلك جزاء على أعمال شاقة ولو قلنا: بأن أعمال الطاعات شكر فقد جعل الله الجنة جزاء

---

(١) الزخرف/ ٣٢.

للشاكرين لا يقال: إذا كانت الطاعات شكراً فلا استحقاق للثواب في الآخرة لأنا نقول: إن الدليل القاطع قد قضى بأن الطاعات شكر بقوله تعالى: ﴿**اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور**﴾[1] والثواب في الآخرة جزاء للشاكرين وللإمتثال لأن الشكر عبادة وطاعة وحيث أن الله قد جعل الطاعات شكراً ولم تَعُدْ منها فائدة لا للشاكر ولا للمشكور فهي عبث من هذه الطريقة فلزم أن تكون شكراً من حيث أن الله جعلها شكراً وفائدتها للشاكر هو الجزاء بالثواب الدائم ولو لم نقل هكذا للزم أن تكون عبثاً ولا يجوز على الحكيم فليتأمل.

وفي هذا القول جمع بين الأدلة حيث أن الله قد صرح في كثير من الآيات أن للأعمال جزاء كقوله تعالى: ﴿**فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون**﴾[2]، ﴿**ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾[3] وغير ذلك وقد صرح بأن

---

(١) سبأ/ ١٣.
(٢) الأنبياء/ ٩٤.
(٣) النساء/ ١٣.

الطاعات شكر فلا محيص مما ذكرنا والله الموفق.

هذا وقد قال بعضهم: «إن الدليل على استحقاق الثواب من العقل والنقل عقلاً ونقلاً.

أما العقل فإن الله قد كلفنا الشاق فلا بد من العوض على ذلك مما يعود نفعه على المكلف، فلو لم يجبره بنفع لكان ظلماً من حيث أن إلزام الشاق يجري مجرى إنزال المشقة.

وأما النقل فما في القرآن من الوعد بالجزاء ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾[1]، ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وأما دوامه: فإنه لا بد للثواب من الإختصاص بصفات يتميز بها عن غيره منها الدوام.

دليله: أن استحقاق الثواب يقتضي المدح والمدح يستحق دائماً فكذلك الثواب لاتحاد جهة الإستحاق وأيضاً

---

(١) الواقعة/ ٢٤.
(٢) التوبة/ ٩٥.

فلو لم يقطع المثاب بدوامه لأدى ذلك إلى التنغيص المنفي عن أهل الثواب.

وأيضاً قد حسن من الله دوام التفضل فلو كان الثواب منقطعاً لكان التفضل أعلا حالاً من الثواب، ولقبح التكليف لأجل الثواب، ولاختار العقلاء التفضل أعلا حالاً من الثواب، ولقبح التكليف لأجل الثواب، ولاختار العقلاء التفضل الدائم على الثواب المنقطع.

ومنها: أن الثواب يكون على جهة التعظيم وإلا فلا فرق بينه وبين التفضل.

ومنها: أن يكون بالغاً في القدر مبلغاً يحسن الإبتداء به ليفارق التفضل، وحيث أن الثواب يقتضي الإجلال والتعظيم فيجب دوامه وإلا فقد يعود بالنقض عند الإنقطاع.

وأما العقاب فهو أن العاصي يستحقه عقلاً ونقلاً.

أما العقل فهو: أن الله بحكمته جعل التكليف فإنه أوجب علينا واجبات، ونهانا عن محرمات محدودة وجعلها مشتهيات فخلى فينا شهوة القبيح، ونفرة الحسن

ليتحقق مشقة التكليف فلو لم يكن هناك عقاب نستحقه بالإقدام على القبيح والإخلال بالواجب مع العلم بذلك لحصل لنا موجب الإغراء وهو قبيح من الله جل وعلا فلا بد من زاجر عظيم وتهديد جسيم وقد حصل، ومع ذلك فقد أوجب علينا واجبات نتخلص بها من ذلك الضرر أو تكون كما قال بعضهم: الطافا في ترك المحرمات لأن الواجبات لم تجب لجلب النفع فقط فلذلك كان استحاق العاصي للعقاب عقلياً من هذا الوجه.

ومن ناحية أخرى هو ان العاصي عبد لمولاه وسيده وهو ربه جل وعلا والعاصي يستحق الذم والعقاب لأنهما متلازمان، كما أن المدح والثواب متلازمان وهذه طريقة واضحة جلية.

دوام العذاب في الآخرة

وأما دوامه أي دوام العقاب لذلك لأنه ملازم للذم، والذم يلزم دوامه فكذلك العقاب، ولأنه لو لم يكن دائماً لسهل على كثير من الناس احتماله إيثاراً للذة العاجلة،

ولا شك أنهم مع العلم بدوامه أبعد عن المعصية، ولمثل ذلك يجب أن يكون بالغاً مبلغاً عظيماً ليكون المكلف مع العلم به أبعد عن المعصية، ولأنه جل وعلا عرض بالتكليف لغاية المنافع فلا بد أن يتضمن التحذير غاية المضار، وهذا من الألطاف التي جعلها الله للمكلفين العاصين وقد أخر عنهم العذاب عن وقت الإستحقاق لأن العاصي يستحق العقاب وقت العصيان فمن رحمة الله أن أخر العقاب في الآخرة لمن أحب أن يرجع ويتوب، ووعد بقبول توبة التائب وإنابة المنيب وأردف ذلك بمواعظ وعبر ليتذكر العاصي ولا يكون له عند الله حجة يوم القيامة ويستحق العقاب الدائم وبهذا وردت الأدلة من القرآن قال تعالى: ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير**﴾[1]، صدق الله العظيم.

---

(١) فاطر/ ٣٦ ـ ٣٧.

الدليل على عدم اسقاط العقاب

وقد قال بعض أهل الكلام: إنه لا يحسن من الله إسقاط العذاب عن العاصين عقلاً؛ لأنه لو قدر ذلك لكان في حكم الإغراء؛ ولأنه لو جوز العفو لسقط الذم عنه وهو غير ساقط فوجب أن لا يسقط العقاب.

وأيضاً تخلف الوعيد مع القدرة وعدم المانع كذب وهو قبيح ولا يجوز على الله، وقد أخبر أنه لا يخلف الميعاد بقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ما يبدل القول لدي وما انا بظلام للعبيد﴾[2] وهذا من طريق العقل.

أما النقل فالأدلة كثيرة مقتضية للدوام ولعدم العفو أما المقتضية للدوام فيقول الله تعالى: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾[3] ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾

---

(١) آل عمران/ ٩.
(٢) ق/ ٢٩.
(٣) الإنفطار/ ١٦.

﴿وهم فيه مبلسون﴾ ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾[1] ﴿اخسؤا فيها ولا تكلمون﴾[2] ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾[3]، ﴿ومن يعص الله ويتعد حدوده يدخله نار جهنم خالداً فيها وله عذاب مهين﴾[4] ﴿وما هم بخارجين من النار﴾[5] ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[6] ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾[7] إلى غير ذلك وإنما المقصود الإشارة وأما عدم العفو فقول الله تعالى: ﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾[8] ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا

---

(١) الزخرف/ ٧٧.
(٢) المؤمنون/ ١٠٨.
(٣) الجن/ ٢٣.
(٤) النساء/ ١٤.
(٥) البقرة/ ١٦٧.
(٦) البقرة/ ٨١.
(٧) فاطر/ ٣٦.
(٨) ق/ ٢٩.

نصيراً﴾[1] ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾[2] ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾[3] ﴿وإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾[4] ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾[5] فهذه آيات تخبرنا عن عدم العفو لأنه لا يبدل قوله، وليس للظالمين من ولي ولا ناصر ولا حميم ولا شفيع، وقد حقت الكلمة، ولا تبديل لكلمات الله، وما هم من المعتبين فيقبل عتباهم، ومالهم ناصر، وكل هذه عامة تقتضي جميع الأوقات.

ونلاحظ في هذا البحث ما قاله الإمام عز الدين في المعراج قال: قوله والذي يدل على أن العاصي يستحق العقاب... إلخ اعلم أن جمهور المعتزلة يذهبون إلى أن استحقاق العقاب يعلم عقلاً وسمعاً، وأبو القاسم يوافقهم

---

(١) النساء/ ١٢٣.
(٢) غافر/ ١٨.
(٣) الزمر/ ٧١.
(٤) فصلت/ ٢٤.
(٥) الزمر/ ٥٤.

هنا فالعقل هو ما تقدم يعني قول صاحب المنهاج هو أن الله جعل الفعل شاقاً علينا بأن خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن، فلو لم يكن هنا ضرر نستحقه إلى قوله: لكنا في حكم المغريين بالمعصية. قال الإمام: والسمع ورد بتسمية العقاب جزاء لقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾[1] فلولا استحقاقه لم يسم جزاء وقوله: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[2] ولولا الإستحقاق لكان العقاب من أشد الظلم ولأن الله سبحانه قد صرح في القرآن بأنه يعاقب العصاة، وكرر ذلك في غير موضع وقد دلت البراهين القطعية على عدله وحكمته فيعلم من ذلك أن العقاب مستحق إذ لا وجه يقتضي حسنه إلا الإستحقاق فمن المعلوم أنه ضرر عظيم وأنه لا نفع فيه ولا دفع ضرر يقاربه ولا يدانيه، فضلاً أن يزيد عليه أو يساويه فدل ذلك على أنه مستحق، ولا يبعد أن يكون مثل هذا الإستدلال مركباً من العقل والسمع إلى قوله: وأما استدلال المصنف فقد ذكره أبو هاشم وتوبع

---

(١) الانعام/ ١٤٦.

(٢) النحل/ ١١٨.

عليه، وهو أن الله جعل الفعل شاقاً علينا فهو عندي في غاية الضعف لأن المناسب لخلق الشهوة فينا ونفرة الحسن هو عدم استحقاق العقاب لأن هذا ليس علة لأن خلق الشهوة تدعوك إلى الفعل الذي تستحق العقاب عليه إلى قوله: ولكن البرهان الساطع هو دليل السمع الصادر عن العدل الحكيم الذي لا يظلم العباد وهو الدليل المركب الذي قدمنا ذكره أي من العقل والسمع.

قلت: ولكنهم بنوا على أن خلق الشهوة للقبيح والنفرة عن الحسن لأجل تتحقق مشقة التكليف ليس لإستحقاق العقاب والإمام بنى على أن ذلك التعليل لأجل استحقاق العقاب، كما يظهر من قوله: لأنه قال: وهل يتقرر أن يقال: أنت يا هذا العاصي تستحق العقوبة لأن الله خلق لك شهوة تدعوك إلى الفعل الذي يستحق العقاب عليه.. إلخ تأمل.

إلى أن قال وقوله: ولا بد أن يكون العقاب دائماً لأنه نظير الذم قال: إن دوام العقاب الذي هو ضرر عظيم محتاج إلى دليل قطعي فإن الخطر في القول بدوامه أشد

من الخطر في القول بدوام الثواب فالقول به محتاج إلى دليل قطعي والإعتماد في ذلك هو على الدليل السمعي فقد صرح الله بدوامه وخلود أهل النار في النار وأنهم لا يغيبون عنها فاعتمد عليه ورتب على ذلك العلم باستحقاقه فلولاه لما وقع من العدل الحكيم وأما كون العلم به يقتضي أن يكون العبد أبعد عن المعصية فصحيح. انتهى من المعراج بتصرف واختصار.

هذا والإستدلال بالدليل المركب من العقل والسمع هو أقوى وأوضح، ودوام العقاب أمر تقشعر منه الجلود ولكن بالنسبة إلى أن العبد يعصي بنعم الله وهو في كل حال وفي كل وقت محتاج إلى الله وقد خلقه وأنعم عليه بالنعم التي لا تحصى تكون للمعصية موقعها العظيم ولأن ذلك عصيان للرب الكريم فيكون لها موقعها وتقدير عذابهما بتقدير العزيز العليم والله الموفق.

وأما قوله: وهو المخبر لأنه أرحم الراحمين. فنقول: شملت رحمته ووسعت كل شيء ولا شك أنه أرحم الراحمين وأعدل العادلين ولكنه قال: ﴿ورحمتي

وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوٰة﴾[1]. الآية فهذا تخصيص واضح ومن المفهوم أن غير المتقين ليس لهم رحمة قط عليها أي النار ملائكة غلاظ شداد قد نزع الله عنهم الرحمة فليس لأهل النار رحمة، وما ورد من الآيات بأنه أرحم الراحمين وما يفيد ذلك فهو مجمل مبين بقوله: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ وبقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾[2] على أن رحمة الله قد عمت وشملت جميع المخلوقين في الدنيا والآخرة، فكل نعمة من رحمته على جميع الحيوانات وغيرها ولا يدخل تفصيل ذلك تحت عد العادين وحصر الحاصرين.

ومن جملة ذلك أصول النعم التي هي خلق الحي وخلق حيوته وخلق شهوته وتمكينه من المشتهيات، ثم خلق الحجة العظمى العقل الذي ميز به بين الحسن

---

(١) الأعراف/ ١٥٦.
(٢) التوبة/ ٧١.

والقبيح وتعريضه على السعادة الأبدية التي لا يساويها نعمة وإن عظمت وجلت، ثم الألطاف التي بها يصرف الله عن خلقه أنواعاً من المصائب، وتنوير القلب بمعرفة ما هو الأولى والأحسن، ثم ارسال الرسل وتتابع الأيات والنذر والمواعظ والعبر التي لا تنفك في زمان من الموت والحياة وغير ذلك من المصائب التي تنبه العاقل وما يحدث في أكثر الأوقات من تغير الحالات فليس أحد من المكلفين إلا وهو يشاهد العبر التي جعلها الله عبرة للمعتبرين ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

هذا فرحمة الله كثيرة وسعت رحمته كل شيء ولكن كما قال بعض العلماء: إن الله رحيم ما في ذلك ريب ولكن رحمته جل وعلا تشمل من ناب وأناب من جريمته لا من استمر وأصر عليها؛ لأن رحمته بصيرة تعرف طريقها إلى من هو أهل لها وليست بعمياء تخبط خبط عشواء، ولو فكرنا تفكيراً سليماً لقضينا بأن رحمته في الدنيا وسعت كل شيء، لما يحصل في الدنيا من النعم

---

(١) الذاريات/ ٢١.

التي لا تحصى ونحن نقابلها بالمعاصي ومع ذلك يقبلنا الله ويتوب علينا ﴿**وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً**﴾[1] ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده**﴾[2] وفي الحديث (لو أتاني عبدي بتراب الأرض ذنوبا ثم تاب لقبلته أو ما في معناه).

وورد في الحديث القدسي (يا ابن آدم ما تصفني أتحبب إليك بالنعم وتتمقت *إلينا بالعصان فخيري إليك* كل يوم نازل وشرك إلي كل يوم صاعد فلو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم من الموصوف لمقته)، الحديث فالإنسان كما قال تعالى: ﴿**إنه كان ظلوما جهولا**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**إن الإنسان لربه لكنود**﴾[4] و ﴿**قتل الإنسان ما أكفره**﴾[5] ولولا علم الله بحال الإنسان وشدة تمرده لما توعده بما توعد من النار التي وقودها

---

(١) طه/ ٨٢.
(٢) الشوري/ ٢٥.
(٣) الأحزاب/ ٧٢.
(٤) العاديات/ ٦.
(٥) عبس/ ١٧.

الناس والحجارة ودوام العذاب.

هذا وأما الرحمة في الآخرة فشيء خارج عن حصر الحاصرين، وقد ورد أن الله جعل في الآخرة تسعة أعشار رحمته، ولا شك أن هناك موضع الرحمة وهي للمتقين كما أخبر الله، يقبل أعمالهم ويثيبهم ويجازيهم على أعمالهم وامتثالهم، على أنه لولا الوعد منه تعالى بالجزاء على الأعمال لما استحق أحد شيئاً في مقابلة نعم الدنيا وقد تحقق أن الطاعات شكر والجزاء في الآخرة من واسع رحمته حيث من بالجزاء على الطاعات التي لم توافِ بقليل من النعم، وكذا رحمته على الأطفال وتفضله عليهم بالجنة وغيرهم ممن يلقى الله قد استوت حسناته وسيآته وغير ذلك كثير .

والله ولي التوفيق ونسأله حسن الختام.

الحكمة في الخلق

السؤال الرابع قوله أين الحكمة في الخلق مع التعذيب وهو أحكم الحاكمين؟

الجواب وبالله التوفيق قد تقدم الجواب على السؤال الثاني وهو يتضمن الجواب على هذا السؤال وزيادة في الإيضاح أن وجه الحكمة في ابتداء الخلق هو الأصل في التكليف لأنه إذا لم يخلق المكلف فلا تكليف.

واعلم أن الله خلق الخلق لحكمة اقتضاها عدله وفضله وحكمته، وقد ثبت بالدليل العقل والسمعي أن الله عدل حكيم وإذا كان كذلك فلا يتصور ولا يقع منه العبث، ولا يفعل إلا ما فيه غرض، وإذا صح أنه لا يفعل إلا لغرض فلا يخلو إما أن يعود ذلك الغرض إلى الخلق أو إليه، الثاني باطل لأنه قد ثبت أنه غني قادر وأنه غني عن المنافع والمضار فثبت أنه يعود الغرض إلى المخلوقين وإذا ثبت أنه يعود إلى المخلوقين فلا يخلو إما

أن يكون للنفع أو للضرر الثاني باطل لأنه ظلم والظلم قبيح وقد ثبت أن الله لا يفعل القبيح لقبحه ولإستغنائه عنه فثبت أنه للنفع للمخلوقين وأنه مما يعود نفعه عليهم، وهذا جواب إجمالي.

وأما التفصيلي: فالله خلق الخلق كلهم من حيوان وجماد وغير ذلك، فأما خلق الجماد فلكونه نعمة على الحيوان جسما كان أو عرضا فالأجسام ظاهرة وأما الأعراض فما كان من الأعراض في الجماد كالروائح والطعوم والألوان ففي ذلك من جلائل النعم على الحيوانات ما لا يخفى حتى قيل: لولا الأعراض لما عظم موقع الإنتفاع بالأجسام وكذا الحياة والشهوة والعقل هي من الأعراض.

وأما الحيوان فمكلف وغير مكلف خلقه الله لنفع نفسه ولما يتفضل به عليه من المنافع الدنيوية، وقد يكون في بعض الحيوانات من مكلف وغيره نفع لغيره تبعاً لنفع نفسه.

وغير المكلفين من الأحياء قد يكون الغرض المهم

من خلقهم نفع غيرهم من المكلفين، بل قد صرح الجمهور بأنهم ما خلقوا إلا لذلك، وهو إما نفع دنيوي كركوب البهائم والحمل عليها والعمل بها والانتفاع بأصوافها وألبانها وجلودها ولحومها وغير ذلك، وإما ديني كما يحصل بها الإعتبار عند النظر فيها والتأمل لأمورها وأحوالها وما يحصل من الشكر عليها عند رؤيتها ومشاهدتها قال تعالى منبهاً للعقلاء: ﴿خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم

يتفكرون﴾[1] ففي هذه الآيات من الدلالة على أن الله خلق الأنعام نعمة للخلوقين، وتمنن علينا بها وذكر ما فيها من المنافع الكثيرة ما تنبه العاقل على التفكر، وتثيره على الشكر وتدله على حكمة الله البالغة العظيمة التي تحار منه عقول الأذكياء وتعجز عن وصفها ألسن الفصحاء البلغاء، وأن مما يقضي بالعجب تطور عقول بعض البشر ودخولهم فيما لا يعنيهم ومحاولة ما لا طريق له من علمه بأنه من الخلق الضعيف الذي أشار الله إليه بقوله تعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾[2] فيتطاول إلى شيء عظيم فيتساءل عن شيء قد عجز عنه أعظم قوة في المخلوقين ومن جعلهم في أعلا طبقات الفضل وهم الملائكة الذين خلقهم الله من نوره، واختصهم بمحل القدس والتطهير منهم من هو في السماء السابعة ومنه من خصه الله بأعمال تدبير العالم كله وقد وقف الجميع مذعنة مؤمنة بالله العظيم الذي تعالى قدره وعظم جلاله بما لا يقدر أن يبلغ وصف عظمته الواصفون فآمنت الملائكة بالله العظيم كما

---

(١) النحل/ ٣ ـ ١١.

(٢) النساء/ ٢٨.

وصف نفسه، وآمنت بأنها عاجزة عن معرفة كنه ذاته وعظمته، وبقدر معرفتهم له عبدته وآمنت به فمنهم المسبحون بعظمة الله لا يفترون والراكعون لجلاله لا يعتدلون والساجدون لكبريائه لا يقومون ﴿وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[1].

هذا وأما من خلقه الله وهو يعلم أن نهايته إلى العذاب فإن الله من عليه بخلقه، ومن عليه بأصول النعم وفروعها، ومكنه من كل المشتهيات وعرضه لعمل الطاعات وأنذره وحذره وأسبل عليه نعمه مع ذلك ورادف عليه النذر والعبر وركب فيه حجة العقل التي هي أعظم حجة نور يضيء له في ظلم الجهالات ويبصره طريق الخيرات ومناهج السعادات، ويرشده إلى سبيل الهدى، ويحذره عن سلوك سبيل الغي والردى، ولم يبق له عند

---

(١) الانبياء/ ٢٠.

الله حجة يعتذر بها ولم يخلقه الله إلا لما ذكرنا فاختار طريق الشقاء، ورضي لنفسه سلوك منهج الردى مع هذا كله، والله سبحانه وتعالى خلقه كما خلق غيره لما ذكرناه من تعريضه للسعادة الأبدية ولم يرض له ولا لغيره أن يختار ما هو له في النهاية من العذاب الذي ليس له غاية ولا انتهاء، والسبب الإبتدائي كاف في حسن خلقه.

وأما علم الله فالمفروض أنه ليس له دخل في التكليف ولا في غيره وإنما هو كشف للعاقبة وما كان استحقاق العذاب لأنه خلقه ولا لأن الله كلفه ولا لأن الله علمه حاله، بل العذاب على عمله الذي اختاره بنفسه، وعلى تركه لما أمر به من واجباته التي أوجبه عليه خالقه فلا يرد أي سؤال أو اعتراض أو اشكال على خلقه بل كان حق السؤال أن يكون على تكليفه الذي كان من الأسباب التي صار فيها عاصياً، وقد أجبنا على هذا السؤال أنه يمكن عقلاً وسمعاً ألاَّ يكلف كغيره من المخلوقين، ومع أن الشكر على النعم أنواع من التكليف والجاحد للنعم والكافر بها يستحق الذم والعقاب فليتأمل العاقل ففي ما أوردناه كفاية وافية في تبيين الأسباب.

على أن ذلك مما لم نكلف به ولم يحسب علينا معرفة الأسباب لأن الواجب هو الإيمان بعدل الله وحكمته، وأن فعله في كل تصرفاته حسنة وفي كل ذلك عدل وحكمة بدلالة العقل والنقل، فإن عرف العاقل الأسباب فذلك نعمة وفضل عظيم وإلا فالواجب هو الإيمان بعدل الله وأنه عدل حكيم، و ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[1] ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾[2] صدق الله العظيم.

وبهذا انتهى الجواب والله الموفق للصواب سائلاً الله جل وعلا أن يجعل الأعمال خالصة لوجهه الكريم وأن يجعلنا مما شمله قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في

---

(١) الانبياء/ ٢٣.

(٢) القصص/ ٦٨ ـ ٧٠.

سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[1].

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد الأمين وآله الطاهرين واستغفر الله العظيم من كل خطأ وزلل ومما جرى به القلم مما لم يكن لله فيه رضا بعمد أو سهو أو خطأ ولا حول ولا قوة إلا بالله تم تحريره ليلة الثلاثاء من جمادي الآخرة سنة ١٤٠٤ هـ.

كاتبه صلاح أحمد فليتة غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين.

---

(١) الحجرات/ ١٥.

الفهرس

مقدمة في معرفة الله ٥

السؤال الاول وجوابه ٦

النهي عن التفكر في ذات الله ١٣

التفكر في المخلوقات هو الدليل للمعرفة ١٤

العقل هو النعمة الكبرى ٢١

صفات الله تعالى ٢٥

السؤال الثاني وجوابه ٢٨

التكليف وحسنه ٣٢

العقل ودوره في علم أصول الدين ٣٤

السؤال الثالث وجوابه ٣٦

الدليل على عدم اسقاط العذاب ٤٤

السؤال الرابع الحكمة في الخلق وجوابه ٥٤